

نشأة الخطاب النثري وتطوره عبر عصور الأدب العربي

د.م. إنصاف سلمان علوان

كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل

كان لمجيء الإسلام أثره الكبير في تطور الحياة العقلية والحضارية للعرب، فقد ازداد الاهتمام بالكتابة مع انتقال الفكر العربي وتبدل أولوياته من الحفظ والرواية إلى تدوين وكتابة ارثهم المخزون مشافهة، وهو انتقال على مستوى الفكر والإبداع كان قد حدث مع نزول القرآن الكريم، فقد جسد ظهوره النموذج الكتابي الأول الذي نقل العقلية العربية من حياة الفوضى والبداءة إلى حياة التمدن، و جسدت كلمة (اقرأ) أمرا بالاستجابة إلى أنموذج يتلاءم مع حياة العرب ودينهم الجديد، حيث البناء المنظم للثقافة.

وكان لهيمنة الشعر على الحياة العربية تأثير سلبي في الفنون الأدبية الأخرى قراءة وتلقيا، حيث لم تسجل تلك الأجناس حضورا فعليا له أثره، وقد بقي تأثيرها ضعيفا لفترة ليست بالقصيرة حتى "إننا لا نكاد نجد اهتماما حقيقيا بجماليات النثر الفني على نحو ما تحقق بالنسبة إلى الشعر.... إذ يظل سؤال النثر الفني غير القصصي متواريا." (١) ولإلمام بموضوعة النثر وتطوره أدبيا، ستكون معالجته وفقا لل فقرات التالية :

أولاً : مصطلح النثر.

ثانياً : نشأة النثر الفني وتطوره.

ثالثاً : أسبقية الظهور بين الشعر و النثر.

رابعاً : أجناس النثر.

أولاً : مصطلح النثر : لقد أطلق النقاد القدامى مصطلحات كثيرة على النثر أبرزها : الكلام والكتابة والمنثور، وهذه المصطلحات التي قد تبدو متباينة من حيث دلالاتها غير أنها جميعا دلت على ذلك النوع من الكلام الذي لا يكون منظوما.

* الكلام ::، وقد أولى النقاد النثر الذي أطلقوا عليه الكلام عناية خاصة، فأبو هلال العسكري ينظر اليه من حيث: أهمية لحسن سلاسته، وسهولته ونصاعته، وتخيره لفظه، وإصابته معناه، وجودة مطلعته، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه (٢)، والكلام عنده جنسا عاما جامعا لمجموعة من الأجناس الفرعية حيث أجناس الكلام المنظوم عنده ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب (٣). وعند النظر في نص العسكري بعناية نجده قد ساوى بين الشعر والنثر من حيث كونهما ينظمان نظاماً، فليس الشعر وحده من يعتمد صاحبه إلى رصه كما حبات العقد، كذلك الكلام بنوعيه الرسائل والخطب.

ويؤيد ابن خلدون اتساع دلالة الكلام لتشمل النثر والشعر معا بقوله : "إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنيين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى... وفي النثر هو الكلام غير الموزون، وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام " (٤)، وتصنيف الكلام بالاستناد إلى الوزن لم يسلم من تأثير المعايير الشعرية مع وعيه بأن كل جنس أدبي شعراً كان أم نثراً يضم أجناسا فرعية واتجاهات، وهو في مذهبه هذا يؤيد ما ذهب إليه ابن الأثير بتقسيمه الكلام، فقد ورد في كتاب المثل السائر من أن "جماعة من مدعي علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم على قسمين، فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات، ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات" (٥) وقد جعل تأليف الكلام صناعةً تقتقر إلى آلاتٍ كثيرة، يجب توفرها ليسهل معرفة دلالاته والوصول إلى معناه (٦)، ومن دون آلياته فإن "الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه ويلتبس بعضه على بعض" (٧) كما يقول أبو حيان التوحيدي.

* الكتابة : وتتميز الكتابة عن الكلام، والكتابة تشير إلى النثر فقط، وخاصة فيما يتعلق منها بكتابة الرسائل، ويتفق على هذه الفكرة النقاد القدامى، فأبو هلال العسكري حين يتحدث عن مراعاة الأحوال الاجتماعية والقدرات العقلية للمخاطبين يستعمل مصطلح (الكتابة) بقوله : "أول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك.. مكاتبة كل فريق على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق " (٨). والمقصود بالطبقة هو أصناف الناس وفئاتهم الاجتماعية، وهؤلاء صنفهم ابن عبد ربه بـ " الملوك والوزراء والعلماء والكتاب والخطباء والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسوقيهم " (٩)، أما أبو القاسم الاشبيلي فعنده الرسالة هي الكتابة مقارناً بينها وبين الخطبة، بقوله : "الكتابة - أعزك الله - موطن ترحيب وتأهيل، والخطابة مقام ترفيع وتبجيل " (١٠).

*المنثور : وهو يبين المنظوم ويخالفه، لأن كل واحد منهما يشكل جنساً أو فناً بذاته، يقول ابن خلدون "إنما المقصود منه (أي من علم الأدب) عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم " (١١)، فالمنظوم والمنثور عند ابن خلدون فنان تسمو قيمتهما، ويعلو شأنهما بشرط الإجادة، وهذه الإجادة هي ثمرة علم سماه بـ (علم الأدب)، وتبعاً لذلك فالشاعر والكاتب لاجيدان إلا إذا كانا ملمين بذلك العلم، وعند ابن وهب فإن "سائر العبارة في لسان العرب أما أن يكون منظوماً أو منثوراً، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام " (١٢)، ويفرق ابن وهب المنثور ليضم أربعة أنواع نثرية، يقول " فأما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلاً، أو احتجاجاً، أو حديثاً، ولكل واحدٍ من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه " (١٣)، فالمنثور إذن يتخذ أربعة أوجه أو أشكال يتحكم في استعمالها عاملان هما : المواضع والمقامات، علماً أن هناك تفاوتاً واضحاً بين هذه الأشكال الأربعة من حيث الانتشار والتداول، إذ لم يشتهر منها إلا الخطابة والرسالة.

ثالثاً : نشأة النثر الفني وتطوره عبر عصور الأدب : تولد لدى الباحثين في دراسة الأدب الجاهلي اضطراب في تقدير الثقافة الأدبية المتداولة، وحقيقة وجود النثر وتداوله إلى جانب الشعر، ولم تستطع جل الدراسات أن تحسم الموضوع بنتيجة محددة، ورأيٍ مستقر بالإمكان الاطمئنان إليه.

أما فيما يخص مختلف الآثار النثرية المنسوبة إلى عرب الجاهلية، فيكاد مؤرخو الأدب أن يتفقوا على عدم صحة شيءٍ منها مسوغين شكهم هذا بانعدام وسائل التدوين في العصر الجاهلي، ويناقض الدكتور زكي مبارك هذا الرأي مؤكداً أن لعرب الجاهلية نثراً فنياً له خصائصه وقيمه الأدبية، وأن بين أيدينا حجة لاتنكر، ودليلاً لا يجحد على وجود نثر جاهلي وهو القرآن الكريم، الذي كان يخاطبهم بالأسلوب الذي يفهمونه ويتذوقونه، وقد تحدى الخطاب القرآني العرب في محاكاته والإتيان بسورةٍ من مثله، ولم يكن هذا التحدي ليكون إلا لقومٍ لديهم من بلاغة القول وفصاحة اللسان ما ترقى بهم إلى مستوى ذلك الخطاب، ويجعل أمر النثر الفني عندهم حقيقة. (١٤)، ويوافقه الرأي في ذلك الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي. (١٥)

أما طه حسين فله رأي مختلف بالقضية، حيث يعتقد أن "الحياة الأولية الفطرية السهلة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام لم تكن تسمح بقيام هذا اللون من الكتابة الفنية التي تستدعي بطبيعتها الرؤية والتفكير، ووجود جماعة إنسانية منظمة تسودها أوضاع سياسية واجتماعية معقدة، وهذا النثر المنسوب للجاهليين ليس إلا شيءً منحولاً مدسوساً عليهم، حيث انه على هذا النحو الذي روي به لا يكاد يمثل الحياة الجاهلية تمثيلاً كاملاً" (١٦) وما نجده من عناية عرب الجاهلية بصناعة الكلام ابتداء من نهاية العصر الجاهلي وإخضاعه لنقد أولي، غير أنه لم يكن سوى ملاحظات وليس نقد وفقاً لمعايير خاصة، بل كانوا يعولون في ذلك على سلامة الذوق، ووضعوها من النصيح والإرشاد ماقد يفيد كلاً من الخطيب والشاعر في صناعته... حيث كانوا يطلبون من الخطباء أن يراعوا مقتضى الحال، فيوجزوا أو يطيلوا وفقاً للمقام، وأن يفتتحوا خطبهم بحمد الله والثناء عليه، ويوشحونها بأي من الذكر الحكيم، وكتاب البيان والتبيين حافل باقتباسات من الشعر والنثر تظهر الصورة الموجزة لأسلوبهم في النقد، وكلها تصعد إلى أواخر العصر الجاهلي والقرن الأول للهجرة. (١٧) حيث عصر نزول القرآن

الكريم وبداية العصر الإسلامي : ولم يحدث اختلاف جوهري عنه في العصر الجاهلي، ولكنه استجاب لمتطلبات الحياة الجديدة بعد أن " تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى، ولم يكن ثمة من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة، وأن يكون صدئ لأحداثها واتجاهاتها". (١٨) وقد تلون النثر في هذا العصر بألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهوداً وقصصاً، ومناظرات، وتوقعات، وكان على كل حال أدباً مطبوعاً، وامتازت فنونه بالإيجاز. (١٩)

وفي العصر الأموي : فقد كان للكتابة ضرورة إدارية ملحة لاغنى عنها في إدارة شؤون الدولة والمجتمع لحاجتهم إليها في المكاتبات والدواوين المختلفة، وكان لها ضرورة علمية واكبت الحركة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره، ونتاج ذلك كله كان استعمال الكتابة والعناية بها، وقد عرف العرب فكرة الكتابة وأنها صحف تجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات، وقد ألفوا كتباً كثيرة " (٢٠)، وحضي ممن يعرف الكتابة بمكانة رفيعة عند الناس، فـ " سعيد بن العاص يردد دائماً قوله : من لم يكتب فيمينه يسرى" (٢١)، ولتعريب الدواوين وتعدد الحياة السياسية وكثرة الأحزاب والمذاهب الأثر الأكبر في تهيئة الأسباب لرقى الكتابة الفنية في هذا العصر " (٢٢).

أخذ العرب منذ نهاية القرن الثاني يعنون بصناعة الكلام عناية شديدة، وقد دفعهم إلى ذلك أمران : أولهما ما كان بين الأحزاب السياسية في ذلك العصر من صراع تحول إلى عقيدة دينية نظرية في الكوفة والبصرة، وثانيهما الحركة الفكرية التي ظهرت في العهد نفسه، فلم تكن مساجد الكوفة والبصرة يومئذ مجرد أمكنة يتعبد فيها المسلمون، بل كانت فوق ذلك مدارس يغشاها العلماء لتدريس اللغة والنحو والحديث والفقه، ومكان ليقص الإخباريين على سامعيهم أخبار السير والفتوح والفتن، وزعماء الأحزاب السياسية والفرق الدينية للجدل والمناظرة، ولأشك أن من يتصدى للكلام أمام هذه الجموع ينبغي أن يكون موفور الحظ من وضوح العبارة، وظهور الحجة، وخفة الروح، والقدرة على الإقحام، ومن ثم نشأ بحث دقيق فيما ينبغي أن يتحلى به الخطيب من الصفات، وما ينبغي عليه أن يخلو من العيوب، سواء أكان ذلك من حيث الكلام أم من حيث الهيئة والإشارة (٢٣)

وفي العصر العباسي كان للأحداث التاريخية والتقلبات السياسية - فضلاً عن إثراء العقول العربية بالثقافات الوافدة - أثراً كبيراً في تطور الكتابة الفنية التي تقدمت بشكل ملموس من حيث قوة تأثيرها وعمق اتساعها، و" أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والفلسفي والتاريخي والأدبي الخالص، وكان في بعض صورته امتداداً للقديم، كما كان لبعضه الآخر مبتكراً لالعهد للعرب به". (٢٤) وكان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزاً على تجويد الكتابة والتأنق في أساليبها (٢٥)، واختلفت الأغراض التي عبر عنها النثر الفني في هذا العصر، فبعد أن كان النثر الأموي وخطابته منصرفاً بوجه عام إلى أغراض سياسية وحزبية، ولم يتجه إلى الأغراض الأخرى إلا في صورة ضئيلة، فإنه في العصر العباسي قد اتجه إلى كثير من الأغراض والموضوعات الشخصية والاجتماعية والإنسانية، كالمدح والهجاء والرشاء والاعتذار والتهنئة والتعزية والاستعطاف والوصف والنسيب والفكاهة والنصح (٢٦)، فالتبدل الحاصل في الحياة السياسية والاجتماعية وفي مختلف مشاهد الحياة ومقوماتها العامة قد تغيرت مغيرة معها صورة الأدب والنثر بشكل خاص، فقد خطا النثر هنا خطوات واسعة، فهو لم يتطور من حيث موضوعاته فقط بل إن معانيه قد اتسعت وازدادت الأفكار عمقاً وثرأً، فقد رقت الأساليب وعذبت الألفاظ، وتعمقت المعاني، واتسقت الأفكار، وذلك كله بما تهيأ للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد في صور الحياة، ومظاهر العيش، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات، وأنواع المعارف الأجنبية (٢٧)، فمع القرن الثالث بلغ النثر الفني منزلة سامقة، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها،

وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه، بل الاحتفال بها، والطعن فيما سواهما مما شكاه منه النقاد. (٢٨)

ومال الكتاب إلى الإطناب كثيراً للحد الذي نبه إليها النقاد، حتى قال ابن قتيبة " ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان (أما بعد فإنني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى الخ) لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبتدئ ويحذر وينذر " (٢٩)، والإطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التأريخ، ويرجع ابن الأثير سبب تداول صنعة الكلام العربي به إلى أن "العجم يفضلون العرب على الإطالة، فإن شاعرهم يذكر كتاباً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامه، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تأريخ الفرس، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها " (٣٠)، ولم يحفل الكتاب في العصر العباسي الثاني بالبديع والتأنق الكثير بالأسلوب، فقد عابه الجاحظ لأنه عنده "بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات، ليس له لفظة مصنوعة " (٣١) وعابه الباقلائي بقرب الكلام وكثرة الاقتباسات فيه. (٣٢)

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة الجاحظ، واقتدى به كتاب عصره كالصولي وابن الزيات والحسن، وسليمان، وابن وهب، وسعيد ابن حميد، وأحمد ابن إسرائيل، والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية، والبلاغة الدخيلة، وقرءوا كتب الفرس واليونان والهند، وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان. (٣٣)

رابعاً - أسبقية الظهور بين النثر والشعر : لقد ثار جدل بين الباحثين والدارسين للأدب العربي حول السؤال الآتي : أيهما سبق في الظهور الشعر أم النثر ؟ فالحديث عن النثر في الأدب العربي يرد عند كثير من الدارسين في إطار مقارنته بالشعر، وهي مقارنة تجعل منه، غالباً جنساً أدبياً أدنى مرتبة من الشعر، أو اضعف تأثيراً واقل حضوراً. وهذا ما تصح عنه أقوال بعض القدامى " قال السلمي : من فضائل النظم إن صار لنا صناعة برأسها، وتكلم الناس في قوافيها، وتوسعوا في تصاريفها وإعاريضها، وتصرفوا في بحورها.. وما هكذا النثر، فإنه قصر عن هذه الذروة الشامخة، والقلة العالية.. وقال ابن نباتة : من فضل النظم إن الشواهد لا توجد إلا فيه والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء واللغويين يقولون: قال الشاعر، وهذا كثير في الشعر والشعر قد أتى به، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة والشعر هو الحجة " (٣٤) فالشعر عند النقاد مفضل على الشعر لكونه أصبح صناعة لها قواعد المتعارف عليها، كما أنه مصدر للاستشهاد والاحتجاج، فمنه يستقي العلماء والحكماء واللغويون حججهم وشواهدهم، في حين يرى الجاحظ سبب اتساع رقعة الشعر واحتضانه من قبل العرب، في أن "الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة، وفرسانها الإنجاد، وسمحاتها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبنائها على حسن الشيم... فلما تم لهم وزنه سموه شعراً " (٣٥)، ويرجح عبد الكريم النهشلي (ت ١٤٠٣ هـ) أسبقية النثر على الشعر، إذ ينسب إلى بعض العلماء بالعربية قوله " أصل الكلام منثور، ثم تعقبت العرب ذلك، واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقها وتضمن مآثرها.... " (٣٦) ثم أكد هذا الرأي ووافقه في موضع آخر فقال " ولما رأت العرب المنثور يند عليهم، وينفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم، تدبروا الأوزان والأعاريض، فاخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء، فجاءهم مستوياً وأوه باقياً على مر الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعراً " (٣٧)، وفي المقابل نجد مواقف أخرى تنتصر للنثر لكونه الأصل الذي يمد الشعر بذخيرته اللفظية، وعلى الرغم مما عرفه النثر من تطور وتحول شمل أنواعه وموضوعاته، فإنه ظل الجنس الأدبي الأقل حضوراً وتأثيراً من حيث تمثله لموضوعات الإنسان، ولقد عالج القدامى هذه الظاهرة، وذهبوا في تفسيرها مذاهب تحكمت

فيها الميولات والأهواء وبعض من القناعات والحقائق، يقول أبو القاسم الاشبيلي "إنما خصصت المنتور لأنه الأصل الذي أمن العلماء - لامتزاجه بطباعهم - ذهاب اسمه فأغفلوه، وضمن الفصحاء - لغلبته على أذهانهم - بقاء رسمه فأهملوه، ولم يحكموا قوانينه، ولا حصروا أفانيه" (٣٨) وأصحاب كل جنس يعترفون بأن لكل فرع منهما محاسن ومساوئ، ويرى عبد الصمد بن الفضل الرقاشي " ما تكلمت به العرب من جيد المنتور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنتور كله، ولا ضاع من الموزون عشره " (٣٩) ويقول أبو حيان التوحيدى : "وسمعت أبا عابد الكرخي صالح بن علي يقول : النثر أصل الكلام، والنظم فرع، والأصل اشرف من الفرع، والفرع انقص من الأصل، لكن لكل واحد منها زائئات وشائئات " (٤٠)، ويلج على أهم سبب يجعل من النثر اشرف من الشعر، وهو إن النثر هو لغة الكتب السماوية، فهي كلها " منتورة، مبسطة، متبانية الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، نثاق للوزن وتدخل في الأعاريض، ومن شرف النثر إن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء اقرب " (٤١)، فالكرخي يمدح النثر في شبهه بالكتب السماوية، وخاصة في تجسد الوحدة الفكرية فيهما، وبعده عن التصنع الذي قد نجده في النظم مأسوراً بالوزن والقافية، وغيرها وإذا كان باعث النظم الأول قبل العروض هو الذوق، فالذوق طباعي والطباعي هو مخدوم الفكر الذي هو منشأ النثر " (٤٢) والمرزوقي هو الآخر أثار قضية المفاضلة بين النظم والنثر، في إطار محاولته تفسير ظاهرة موضوعية تتفرع إلى ثلاث مشكلات هي : تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب، وقلة المترسلين، وكثرة الشعراء. وذكر المرزوقي الأسباب التي أوجبت تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء، كما أوجبت أن يكون النثر ارفع شأناً من الشعر، والسبب الأول : إن ملوك العرب قبل الإسلام وبعده كانوا يتبحجون بالخطابة والافتتان فيها، وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر، وبعده ملوكهم دناءة. والثاني : إنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة. والثالث : إن الإعجاز القرآني والحديث النبوي وقعا في النثر دون النظم . (٤٣)

ويرى المرزوقي أن السبب الخاص في قلة المترسلين وكثرة المفلقين، وهو إن " مبنى الترسل على أن يكون واضح المنهج، سهل المعنى، متسع الباع، واسع النطاق تدل لوائحه على حقائقه، وظواهره على بواطنه، إذ كان مورده على أسماع مفترقة من خاصي وعامي، وأما مبنى الشعر فهو على العكس من جميع ذلك، لأنه مبني على أوزان مقدرة وحدود مقسمة، وقوافٍ يساق ما قبلها إليها " (٤٤)، وعلى هذا فكل ما يحمى في الترسل يذم في الشعر.

تأسيساً على ما تقدم فنحن إزاء فريقين، كلٌّ منهما ينتصر لجنس على حساب الجنس الآخر وكلا الفريقين لديه ما يتكئ عليه من حجج وبراهين يدلل بها على صدق ما ذهب إليه، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فهناك فريق ثالث يساوي بين الشعر والنثر، مستنداً إلى فكرة رئيسة هي البناء، فالشعر والنثر متساويان في أن كليهما بناءً يعتمد على التوزيع الشكلي؛ فمثلما تنقسم القصيدة إلى أبيات ينقسم النص النثري إلى فقرات. فالعسكري مثلاً يرى أن "المنظوم مثل المنتور في سهولة مطلعته، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه؛ لأنّ الكلام يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعته، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشبه أعجازه بهواديته، ومآخيره لمباديته" (٤٥) وعنده منتور الكلام لا يحسن ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبيغ كلاماً يخلو من الازدواج. (٤٦)

وعند حازم القرطاجني فإن بناء الشعر والنثر متشابهان ؛ فبناء الشعر يبدأ بالأبيات، والفصول، فالقصائد، وهذا يُناظر في النثر بناء الحروف، فالكلم، فالعبارات. يقول: "اعلم أنّ الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف، والقصائد المؤلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ. فكما أنّ الحروف إذا حسّنت حسّنت

الفصول المؤلفة منها إذا رتب على ما يجب كما أن ذلك في الكلم المفردة كذلك، وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان، كما يحسن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحسان إذا كان تأليفها منها على ما يجب". (٤٧)

وهذه المساواة بين الشعر والنثر. عند القدماء. قائمة على تصوّر خاص يقول بتداخل الشعر والنثر، ويذهب إلى أن الشعرية، أو ما يمكن تسميته بالمستوى الفني العالي، يُحقّق للنص الأدبي وجوداً إبداعياً طاملاً توافر فيه، سواءً أكان شعراً أم نثراً. فابن طباطبا يرى أنه "من الأشعار أشعار مُحكمة متقنة، أنيقة الألفاظ، حكيمة المعاني، عجيبة التأليف، إذا نُقِصَتْ وجُعِلَتْ نثراً، لم تبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة ألفاظها". فالإبداع قد يؤدي إلى توافر النثر في الشعر، والشعر في النثر. وعنده الشعر كلام منظوم، بأنّ عن المنثور، الذي يستعمله الناس في مخاطبتهم، بما خُصّ به من النظم الذي إن عُذِلَ به عن جهته مَجَّته الأسماع، وفسد على الذوق. (٤٨)

رابعاً : أجناس النثر : خضعت عملية تحديد أجناس النثر في النقد العربي القديم إلى معايير تحدتت تبعاً لوجهات نظر النقاد أنفسهم، فاعتماد معيار الإيقاع مثلاً أدى إلى تصنيف النثر إلى نوعين :

* نوع يرى فيه ابن خلدون منه السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين من قافية واحدة يسمى سجعاً، ومنه المرسل، وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً بل يرسل إرسالاً، من غير تقييد بقافية ولا غيرها (٤٩) فالنثر بناءً على هذا مسجوع ومرسل وذلك تبعاً لمدى التزام الكاتب ببعض الضوابط ذات الطابع الإيقاعي ومن أبرزها السجع الذي عده النقاد القدامى من المقومات الأساسية للنثر العربي القديم. * ونوع يقسمه أبو هلال العسكري أجناس الكلام إلى ثلاثة هي : الرسائل والخطب والشعر، والحقيقة أن الرسائل والخطب جنسان أدبيان يندرجان ضمن فن أو جنس عام هو النثر، يقول البشير المجذوب "أما النثر فما ورد في حقه من تعريف لا يتجاوز التقسيم والتصنيف، فهو باعتبار الشكل الأدبي (أو الفنون الأدبية) ينقسم إلى خطب ورسائل" (٥٠).

والظاهر إن تصنيف النثر إلى خطب ورسائل ناتج عن اعتماد معيار واحد هو الشكل، والحقيقة غير ذلك، لأن أنواعاً نثرية أخرى يتم إغفالها فلا تذكر، ومنها المقامة التي تختلف شكلاً ومضموناً عن الخطب والرسائل، ومعنى ذلك إن عمليات التصنيف والتجنيس التي يخضع لها النثر تتحكم فيها معايير أخرى غير الشكل والوزن بصفة عامة، فالسبب الذي جعل النقاد يقصرون مفهوم النثر على الخطب والرسائل هو إن هذين اللونين كانا الأكثر نفعاً للطبقة السياسية في تمرير خطاباتها في إحكام قبضتها على المجتمعات، من خلال ما تمتاز به الرسائل والخطابة بأسلوبها القوي الإقناع عن طريق الحجة وروعة التأثير، وهذا الأمر نفسه يفضي إلى مسوغ آخر يجعل هذين اللونين الأكثر تداولاً وانتشاراً من باقي أجناس النثر الأخرى.

وعموماً يمكن القول إن النثر فن أدبي يتفاعل، بطريقة أو بأخرى، مع عوامل الزمان ومعطيات الواقع. لهذا يظل دائماً قابلاً للتطور والتغير؛ ففي الوقت الذي كان فيه الشعر في العصر الجاهلي أغلب في التداول من النثر الفني لحاجة الناس إليه في المنافرة والتمدح والإطراء والهجاء، تحول هذا الوضع في الإسلام إلى النثر لاشتداد الحاجة إليه في تعليم أحكام الدين، وتوجيه الجنود في الحروب، إضافة إلى ضرورة المراسلة بين الخليفة في المدينة والولاة في الأمصار.

وفي العصر الأموي فقد شهد نهضة أدبية كبرى في الشعر والنثر على السواء، وكان النثر أكثر من الشعر استجابة للحياة الحضارية الجديدة، أما العصر العباسي الأول فق كان "عصراً خطيراً حقاً في تطور النثر، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية" (٥١). وهذا العامل مهد لظهور أنماط أخرى من النثر؛ يقول شوقي ضيف: "وكان ذلك إيذاناً بتعدد شعب النثر العربي وفروعه، فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي، وأصبح فيه أيضاً النثر التاريخي، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية" (٥٢) وبهذا تحرر النثر العربي، من خلال تفاعلاته الحضارية، من بعض القيود الأدبية، وانعطف نحو ألوان من الفكر

والعلم والثقافة بصفته الجنس الأدبي الأقدر على استيعاب تلك المعارف والتعبير عنها؛ يقول شوقي ضيف: "وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر، فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي". (٥٣)

إن هذا النمو والازدهار يمثل نقطة تحول رئيسة في تاريخ النثر العربي لم تتيسر له من قبل، وذلك لكونه انفتح على مجالات أخرى أسهمت في إغنائه وتعميق موضوعاته وإمدادها بسمات جديدة. ومرد ذلك أن المضامين فرضت اعتماد أساليب و أشكال تعبيرية مبتكرة تتزاح عما كان سائدا في مجال النثر الأدبي؛ وإلى هذا يشير شوقي ضيف فيقول: «وما من ريب في أن ما انتشر في هذا العصر من غناء وشراب ولهو كان له أثره في هذا الذوق المترف الذي يميل إلى أن يسري التصنيع والزخرف في جميع جوانب الحياة... وطبيعي أن يسري هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعية إلى حياتهم الأدبية لأنه تعبير عصرهم الذي عاشوا فيه " (٥٤)، هذا فضلا عما أنيط بهذه الأشكال والأساليب من وظائف أمكنها النهوض بها في الحياة الاجتماعية.]

خاتمة البحث ونتائجه :

- إن الفنون التي كانت سائدة ومعتزلة بها لشيوعها وتداولها هي: الشعر، والخطب، والمخاطبات (أي الرسائل). وهذه الفنون في اصطلاح القدامى، هي التي نسميها حديثا أجناسا أدبية.
- لكل فن أساليبه الخاصة به، والتي لا تلائم الفنون الأخرى. كما لكل عصر متطلباته التي نهض بها جنسا الأدب شعراً ونثراً، وهو ما يمكن تسميته بالعناصر المهيمنة على تلك الفنون والاجناس في مراحل معينة.
- شهدنا تاريخياً كيف أن النثر كان قابلاً للتغيير بفعل المؤثرات الكثيرة كالتفاعل و التلاقح والتداخل التي مثلت فنون الأدب، مسرعا لها عبر العصور،
- ينبغي الإشارة إلى أن النثر العربي القديم يشكل فناً أو جنسا أدبيا عاما تتدرج تحته مجموعة من الأنواع والأصناف الأدبية، أو ما يسمى بالأجناس الفرعية كالمقامة والخطبة والرسالة والوصية والحكمة والمثل والخبر. ورغم ما بين هذه الأجناس من اختلافات وتميزات، فإنها تنقسم مجموعة من الخصائص التي تتعلق ببنائها وبمكوناتها اللغوية والشكلية والموضوعاتية.
- وفيما يخص مسألة الأسبقية لكل من الشعر والنثر، وعلى الرغم من تعصب عدد من النقاد للنثر في بحثهم عما يجب أن يجعل منه أصلاً مهماً سابقاً ومتوقفاً على الشعر، نرى أن الموقف السليم هو في النظر إلى النثر بكونه إضافة نوعية لم تتبلور لتنافس الشعر، وإنما لتغني الأدب العربي، ولتفتح آفاقاً أخرى للتعبير، والنظر إلى الأمر من زوايا أخرى كثيرة ومتاحة.
- إن التنازع بين الشعر والنثر مر بمرحلتين هما : المرحلة الأولى اكتسبت طابع وجودي بين الشعر والنثر، حيث دارت أهم المناقشات حول الأسبقية في الوجود، وتميزت المرحلة الثانية ببروز الوعي النقدي للجمع بين الشعر والنثر في ظل مفهوم جديد هو ما اصطلح عليه لدى العسكري بالكتابة.

مصادر البحث

- ١- إحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي، تحقيق: رضوان الداية، دار الثقافة بيروت ١٩٦٦، د.ط.
- ٢- الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار التأليف، القاهرة، ط١، ١٩٥٢.
- ٣- الأدب العربي وتاريخه في الأدبين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لا ط، ١٩٩٠.
- ٤- إعجاز القرآن، الباقلاني، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٩١.

- ٥-الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، د.ت..
- ٦-البرهان في وجوه البيان: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تقديم وتحقيق: حفي محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٩.
- ٧-بلاغه النادرة، محمد مشبال، منشورات نادي الكتاب، كلية الآداب، جامعة تطوان، مصر، ط١، ١٩٩٨.
- ٨-الجامع في تأريخ الأدب العربي القديم، حنا فاحوري، منشورات ذي القربى، قم، ط٣، ١٩٩٢.
- ٩-حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، مطبعة الصاوي، القاهرة، ط١، ١٩٣٦.
- ١٠-حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى: البشير المجذوب، الدار العربية للكتاب، د.ط، د.ت.
- ١١-دراسات في الأدب الحديث ومدارسه، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١٠، ١٩٩٢.
- ١٢-شرح ديوان الحماسة، أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق عبد السلام هارون، المطبعة العصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢.
- ١٣-العصر العباسي الأول: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، د.ت.
- ١٤-العقد الفريد لعبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الديباني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٥ هـ. ١٩٥٦ م، د.ط،
- ١٥-عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق عباس عبد الستار، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٥.
- ١٦-الصناعتين (الكتابة والشعر): أبو هلال الحسن العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨١.
- ١٧-الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، مكتبة الأندلس، بيروت، ط١٩٥٦، ٢.
- ١٨-في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، مطبعة فاروق، القاهرة، ١٩٣٣
- ١٩-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين أبو الفتح نصر الله الموصلي، المطبعة البهية بمصر، د.ت..
- ٢٠-مقامات البديع، بديع الزمان الهمداني المولود في همدان والمتوفي في هراة ٣٩٨ هـ.
- ٢١-مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية صيدا. بيروت، ٢٠٠٥
- ٢٢-المتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشلي القيرواني، ترجمة وتحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- ٢٣-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق د. الحبيب بن خوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨.
- ٢٤-مواكبة الأدب العربي عبر العصور، د. عمر الدقاق، دار طلاس للنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨.
- ٢٥-النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د.زكي مبارك، المكتبة العصرية، بيروت، لا ط، لا ت،
- ٢٦-النثر الفني واثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع، مكتبة الانجلو المصرية، لا ط، لا ت.
- ٢٧-نقد النثر، أبي الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، لا ط، ١٩٩٥.

الهوامش

- (١) بلاغة النادرة، محمد مشبال، منشورات نادي الكتاب، كلية الآداب، جامعة تطوان، مصر، ط١، ١٩٩٨: ٨.
- (٢) ظ : الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال الحسن العسكري، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١ : ٦٩.

- (٣) ظ : م. ن : ١٧٩ .
- (٤) المقدمة، ابن خلدون : ٥٦٥.
- (٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله الموصلي ابن الأثير، المطبعة البهية، مصر، دت : ٣٠.
- (٦) م. ن : ١٩٢
- (٧) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيد، صححه وضبطه وشرح غريبه احمد أمين واحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ط، د. ت : ١٣١ .
- (٨) الصناعتين (الشعر والنثر)، أبو هلال العسكري : ١٧٢ .
- (٩) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه : احمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٥٦، ج ٤ : ١٨٠ .
- (١٠) أحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين، أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الاشبيلي الأندلسي، تح : رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٦ : ٢٥٠ .
- (١١) المقدمة، ابن خلدون، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥ : ٥٥٣.
- (١٢) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين اسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تح : حفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٩٦٩ : ١٥٠ .
- (١٣) م، ن : ١٥٠ .
- (١٤) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د. زكي مبارك، المكتبة العصرية، بيروت، لا ط، لا ت، ج ١ : ٥٠
- (١٥) ظ : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار التأليف، القاهرة، ط ١، ١٩٥٢ : ٧٨
- (١٦) في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، مطبعة فاروق، القاهرة، ١٩٣٣ : ٣٦٩. و ظ : من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، مطبعة الصاوي، القاهرة، ط ١، ١٩٣٦ : ٢٤ وما بعدها .
- (١٧) ظ : نقد النثر، أبي الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، لا ط، ١٩٩٥، التمهيد : ٤ .
- (١٨) مواكبة الأدب العربي عبر العصور، د. عمر الدقاق، دار طلاس للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٨٨ : ٧٧.
- (١٩) الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، حنا فاحوري، منشورات ذي القربى، قم، ط ٣، ١٩٩٢ : ١٤٢.
- (٢٠) الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا فاحوري : ٣٣٥ .
- (٢١) دراسات في الأدب الحديث ومدارسه، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط ١٠، ١٩٩٢ : ١٤٢ .
- (٢٢) النثر الفني واثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بليغ، مكتبة الانجلو المصرية، لا ط، لا ت : ١٢٢ .
- (٢٣) ظ : نقد النثر، التمهيد : ٤ - ٥ .
- (٢٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ١٢ : ١٢٥ .
- (٢٥) الأدب العربي وتاريخه في الأدبين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لا ط، ١٩٩٠ : ٣١٢ .
- (٢٦) ظ : النثر الفني واثر الجاحظ فيه : ١٤٨.
- (٢٧) ظ : البيان والتبيين، الجاحظ، مطبعة الخانجي، القاهرة : ٢٦٦/٣ .
- (٢٨) ظ : أدب الكاتب، ابن قتيبة : ٤٢ .

- (٢٩) ظ : م. ن، المقدمة .
- (٣٠) المثل السائر ، ج ٢ : ١٠٧ .
- (٣١) مقامات البديع، المقامة الجاحظية، ج ٢ : ٢٠٩ .
- (٣٢) ظ : إعجاز القرآن : ١٩٤ .
- (٣٣) ظ : الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي : ٢٧٣ .
- (٣٤) الامتناع والمؤانسة : ١٣٥-١٣٦ .
- (٣٥) البيان والتبيين، الجاحظ : ٤٧ / ٢ .
- (٣٦) الممتع في صنعة الشعر، النهشلي تح عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٩٨٣ : ١١ .
- (٣٧) الممتع في صنعة الشعر، النهشلي : ١٨ .
- (٣٨) أحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الاشبيلي : ٣١ .
- (٣٩) البيان والتبيين : ١١٩ / ١ .
- (٤٠) الإمتاع والمؤانسة : ١٣٢ / ٢ .
- (٤١) الإمتاع والمؤانسة : ١٣٢ / ٢ .
- (٤٢) م. ن : ١٣٤ / ٢ .
- (٤٣) شرح ديوان الحماسة ١٦-١٧ .
- (٤٤) شرح ديوان الحماسة ١ / ١٨ .
- (٤٥) الصناعتين : ٦٩ .
- (٤٦) الصناعتين : ٢٨٥ .
- (٤٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٢٨٧ .
- (٤٨) ظ : عيار الشعر : ٥-١١ .
- (٤٩) ظ : المقدمة : ٥٦٥ .
- (٥٠) حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، البشير المجذوب، الدار العربية للكتاب، د. ط، د. ت : ١١ .
- (٥١) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف : ٤٤١ .
- (٥٢) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف : ٤٤٢ .
- (٥٣) م. ن : ٤٤٨ .
- (٥٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف، مكتبة الاندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٥٦ : ١٢٧ .
- نشأة الخطاب النثري وتطوره عبر عصور الأدب العربي.